أبو عبيدة معمر بن المثنى
وكتابه : مجاز القرآن

د. صلاح محمود على شحاته

أبو عبيدة معمر بن المثنى (المتوفى عام ٢١٣ ﻫ أو ٢٠٩ ﻫ أو ٢٠٨ ﻫ على الخلاف فى سنة وفاته ... هو من العلماء الذين وجهوا عنايتهم، وركزوا جهادهم واهتمامهم بالأسلوب القرآنى، وبالمعانى والنظم، وصلة النظم بالمعنى واللفظ وقد استرعت اهتمامه فنون (التعبير القرآنى)(١) .

وقد ألف « أبو عبيدة » كتابه الشهير : « مجاز القرآن » بعد أن سئل فى مجلس « الفضل بن الربيع » سنه ١٨٨ ﻫ عن حكمة التشبيه بما لم يعرف مثله فى قوله تعالى فى سورة الصافات الآية ٦٥ (طلعها كأنه رءوس الشياطين) بصدد الحديث عن شجرة الزقوم ...

وقد أجاب أبو عبيدة عن هذا السؤال : بأن الله كلم العرب على قدر ما يتكلمون به، وضرب لذلك مثلا بقول امرىء القيس :

أيقتلنـــى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال ؟

---

(١) ينظر فى ترجمته : «معجم الأدباء» لياقوت الحموى ج١٩ ص١٥٤ أخبار النحويين البصريين ص ٦٧ ، « تاريخ بغداد » ص ٢٥٢ ج١٣

ب لم يروا الغول قط، ولكن لما كان أمر الغول يفزعهم ويروعهم خوفوا به وأوعدوا »، فاستحسن السائل هذه الاجابة وهو — على ما قيل « إبراهيم بن إسماعيل الكاتب » ، فطلب « الفضل بن الربيع » إلى « أبى عبيدة » أن يجمع فى هـــذا وأمثاله كتاباً مما يحتاج إليه الناس »، فلما عاد « أبو عبيدة » إلى البصرة قام يتتبع القرآن الكريم : آية آية وسورة سورة، شارحاً غريبه وموضحاً أساليبه المجازية ، ذاكراً من الشعر العربى الفصيح الرصين ما يؤيد المعنى الذى فصله على غيره ، فكان من ذلك كتابه « مجاز القرآن » . . ، وظاهر عنوان هذا الكتاب يوهم أنه صنفه فى المجاز « بالمعنى الاصطلاحى البلاغى ، ولكن النظرة الفاحصة فى هذا الكتاب توقفنا على حقيقة الأمر وهى أن كلمة « مجاز » فيه يقصد بها المؤلف : الدلالة الدقيقة لصيغ الأساليب القرآنية المختلفة .

ولقد تنبه إلى ذلك « ابن تيمية » فتراه يقول فى كتابه « الإيمان » . أول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز: أبو عبيدة معمر بن المثنى ، والمراد بمجاز الآية عنده هو ما يعبر به عن الآية (١) .

ويمكننا أن نقول : إن أبا عبيدة ، قد عنى بمجاز الآيات ؛ تفسيرها وتأويلها ، ويتضح لنا ذلك منذ السطور الأولى فى كتابه هذا فقد جاء فى مقدمته ما نصه : (... قال الله — عز وجل ثناؤه — : « إن علينا جمعه وقرآنه » ، مجازه : تأليف بعضه إلى بعض ، ثم قال : « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » ، مجازه فإذا ألفنا منه شيئاً فضممناه إليك فخذ به واعمل به وضمه إليك ...

ونلاحظ فى كتاب : « مجاز القرآن» أن مؤلفه قد اختار الآيات التى تمثل صوراً مختلفة فى الدلالة والصياغة متمثلا بما يشبهها من أشعار العرب ، وقد

---

(١) ينظر كتاب « الايمان » لابن تيمية ، ص ٣٥ ...

أداه هذا الاختيار إلى أن يتحدث عما فى الآيات من استعارات وتشبيهات وكنايات ، وتقديم وتأخير وحذف وتكرار وإضمار ، وكذلك توسع المؤلف فى تصوير الخصائص التعبيرية للأساليب القرآنية ويتجلى ذلك فى حديثه عن : الدلالة بلفظ الخصوص على معنى العموم والعكس وفى حديثه عن مخاطبة الواحد مخاطبة الاثنين(١) ...

وقد تنبه صاحب « مجاز القرآن » إلى الصورة العامة لأسلوب « الالتفات » — وإن لم يسمه باسمه الاصطلاحى — فنراه يقول : « ... ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت إلى مخاطبة الغائب : قال تعالى : « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم » أى : بكم(٢) .

فأبو عبيدة فى كتابه هذا يريد أن يبين لنا طرق أداء المعنى القرآنى ويقارنها بما هو موجود فى كلام العرب حتى يستبين للقارىء فضل نظم القرآن الكريم وأسلوبه واحتوائه على الصور البيانية ...

ولننظر إلى شرحه لقوله تعالى : « وأشربوا فى قلوبهم العجل » يقول : سقوه حتى غلب عليهم ، مجازه مجاز المختصر . اشربوا فى قلوبهم العجل : حب العجل(٣) .

وتفسيره لقوله تعالى : « فليستجيبوا لى » يقول: أى : يجيبونى ثم يدعم كلامه بقول كعب الغنوى :

وداع دعا : يامن يجيب إلى الندى ❊ فلم يجبه عند ذاك مجيب

---

(١) « البلاغة تطور وتاريخ » د. شوقى ضيف / ٣٠

(٢) ينظر « مجاز القرآن » ١١ / ١ تحقيق فؤاد سزكين . ط. الخانجى .

(٣) « مجاز القرآن » ٤٧ / ١ .

يقول أبو عبيدة فى شرحه لهذا البيت : أى فلم يجبه عند ذلك مجيب(١) .

ثم نرى أبا عبيدة ينتقل بعد أن يشرح الجانب الغريب — إلى الجانب الواضح الذى يحدد معنى الصورة البيانية فيرى فى قوله تعالى « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم » . « مجاز تمثيل » ، لأن مابناه على التقوى أثبت أسساً من البناء (الذى بنوه على الكفر والنفاق وهو على شفا جرف ، وهو مايجرف من سيول الأودية ، فلا يثبت البناء عليه(٢) .

وأحب هنا أن أوضح أن كلمة « مجاز » وردت فى القرنين الثانى والثالث بالمعانى الآتية :

أولا : جاءت بمعنى التفسير أو التأويل ، ومن ذلك قول أبى فى قوله تعالى : « إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون » .

مجازه : إذا قيل لهم : قولوا لا إله إلا الله .

وقال فى قوله تعالى : « لا فيها غول » .

مجازه : ليس فيها غول ، ومنه قول « المبرد » : الطاغم ـ عند العرب ـ : « من لا عقل له ولا معرفة(٣) » .

ثانياً : أنها جاءت مقابلة لمعنى كلمة « حقيقة » ، فتكون بمعنى التى استعملت فى غير ما وضعت له فى أصل اللغة ، وقد ورد ذلك فى كتاب « الحيوان » للجاحظ حينما أورد شواهد كثيرة من مادة « أكل » ،

---

(١) « مجاز القرآن » ١ / ٦٧ .

(٢) « مجاز القرآن » ٢ / ٢٦٩ .

(٣) انظر « الإعجاز البيانى للقرآن » د. حفنى شرف ص ١٧ ، و « الكامل » للمبرد ص ١ — ١٤ .

كقوله تعالى : « إنما يأكلون فى بطونهم ناراً » ، وقوله تعالى : « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً » ، فإنه يقول : « وهذا كله مجاز(١) » .

ثالثاً : وردت كلمة مجاز فى هذين القرنين — الثانى والثالث — بمعنى الاسلوب وطريق الأداء ، ولذلك نرى ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ يقول : « ... وللعرب المجازات ومعناها طرق القول ومآخذه . فمنها : الاستعارة ، والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار والتعريض والإفصاح والكناية والإيضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجمع ومخاطبة الجمع مخاطبة الواحد والواحد مخاطبة الاثنين والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم وبلفظ العموم لمعنى الخصوص(٢) » .

مما تقدم نستطيع أن نخلص إلى أن « أبا عبيدة » كان يقصد من كلمة « مجاز » أن يبين صوراً من التعبير القرآنى ، ثم يجرى هذه الكلمة على مجموعة من المعانى اصطلح علماء البلاغة — فيما بعد — على تسميتها خاصة ، وقد نشأت هذه المصطلحات البلاغية فى ظلال الدراسات القرآنية التى يعد كتاب « مجاز القرآن » أساساً لها ...

وعلى أية حال : فإن كتاب « مجاز القرآن » لفتة صادقة من « أبى عبيدة » يعرفها له تاريخ البلاغة بإجلال وإكبار وتقدير(٣) ...

وهذا الكتاب يعد مرحلة أولية من مراحل الكشف عن الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم ، ومن مراحل تطور النقد والدراسات البيانية

---

(١) « الحيوان » للجاحظ ١٠/٥ .

(٢) انظر كتاب « القرطين » لابن قتيبة ١٦٢/٢ .

(٣) انظر (الإعجاز البيانى للقرآن) ، د. حفنى شرف ص ١٩ ، « البلاغة تطور وتاريخ » ، د. شوقى ضيف ص ٣٠ .

لأسلوب القرآن ، وفى تصور الأدب العربى عامة ، كما أنه يعد — بحق — مرجعاً لكثير من الدراسات الأدبية واللغوية التى تلت(١) .

وأبو عبيدة فى كتابه . « مجاز القرآن » رجل واسع الاطلاع ، جم المعرفة ، فكتابه يشمل علم العربية . إذ ضم أفانين مختلفة مما يدور حول مسائل النحو واللغة والبلاغة متجاورة غير مفترقة(٢) ...

ومن الظلم لأبى عبيدة إذن أن نقصر اتجاهه على رواية الأخبار والتاريخ . وحسبنا أن يقول الجاحظ عن أبى عبيدة : (لم يكن فى الأرض خارجى ولا جماعى أعلم بجميع العلوم من أبى عبيدة(٣) .

ولم يكن « الجاحظ » ممن يسوقون الثناء سوقاً دون تحديد ، ولكنه — كما نعلم — صاحب ميزان دقيق يزن به الأساتذة الزملاء من معاصريه ، فكلمته السابقة فى أبى عبيدة لها وزنها وثقلها لدى من يعرفون علم أبى عبيدة ورأى الجاحظ فيه — كما يذهب الدكتور /رجب البيومى(٤) ...

وفوق ذلك فلقد قيل عن أبى عبيدة : (إنه كان لا يفتش عن علم من العلوم إلا كان من يفتشه عنه يظن أنه لا يحسن غيره ، ولا يقوم بشىء أجود من قيامه به) (٥) .

---

(١) « أثر القرآن فى تطور النقد » د. زغلول سلام ٤٠ ...

(٢) « بلاغة القرآن بين التاريخ والفن » د. فتحى عامر ١٦ .

(٣) « البيان والتبيين » ١/٢٣١ . ط . السندوبى ...

(٤) ينظر كتاب الدكتور رجب البيومى « خطوات التفسير البيانى للقرآن » ٥٠ .

(٥) انظر « معجم الأدباء » لياقوت الحموى ١٩/١٥٥ .

هذا ... واشتمال كتاب : « مجاز القرآن » على بعض الألوان البلاغية محددة بأسمائها مع سبق زمنه التأليفى عن كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ فيه دليل على أن البلاغة العربية فى طور نشأتها كانت عربية خالصة ...

وكتاب « مجاز القرآن » قد رتب وفق ترتيب السور القرآنية فى المصحف الشريف مما يسهل معه أن يرجع أى دارس إلى ما ذكر « أبو عبيدة » فى توجيه الآيات القرآنية . من مثل قوله تعالى فى سورة البقرة آية ٢٢٣ : (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) حيث يقول فيه : « إنها كناية وتشبيه(١) » ...

ويلاحظ أن « أبا عبيدة » فى كتابه « مجاز القرآن » قد توسع فى كلامه عن « الكناية» وفى إطلاقها توسعاً حدده البلاغيون - فيما بعد - ولكنه سبق إليه ونص عليه ...

وإذا بحثنا عن « الاستعارة » فى كتاب « مجاز القرآن » فإننا لا نجدها بلفظها — وإن كان أبو عبيدة قد ألم بها فى كتاب آخر له هو كتاب « النقائض بين جرير والفرزدق » حيث قال تعليقا على قول الفرزدق : « عوذ النساء » : (هن اللائى معهن أولادهن ، والأصل فى عوذ — فى الإبل — هو : الإبل التى معها أولادها فنقلته العرب إلى النساء ، وقد تفعل العرب ذلك كثيرا(٢)) .

فأبو عبيدة بكتابه « مجاز القرآن » — إذن — هو من أوائل من أسهموا فى « التقنين البلاغى » — وعلى فرض نقله من شيوخه من أمثال « عمرو بن العلاء » فحسبه أنه كان أول من دون هذه الملاحظات والمصطلحات

---

(١) « مجاز القرآن » ١/٧٣ .

(٢) انظر « النقائض » ١/٢٦٢ .

فى كتاب يتناقله الناس ، فقدم بذلك الوثيقة الصادقة التى تحفظ لهذه المصطلحات وجهها العربى الخالص — دون غشاء —

وأبو عبيدة فى « مجاز القرآن » عند ما فرغ من الكلام على كلمة « قرآن » ، داف إلى نص القرآن وما يتضمنه من فنون البيان منبهاً إلى أنه يشابه فى نظمه كلام العرب ، ولقد حرص على أن يؤكد دائماً صحة أسلوب القرآن وصحة فنون التعبير فيه بأساليب العرب وفنونهم فيذكر دائماً فى كلامه حينما يختتمه : (أن العرب تفعل هذا) ...

ومن كتاب « مجاز القرآن » لأبى عبيدة ندرك أن تحليله لبعض الآيات القرآنية كان خطوة تالية فى التحليل البلاغى الأدبى للأسلوب القرآنى ، ذلك أن من سبقوه كانوا يعتمدون فى تناولهم للنص القرآنى على الحس البيانى الفطرى فى فهم هذا النص ، وذلك قبل أن تخطو اللغة العربية خطوة فى تأليف العلوم ، وتدوين المعارف ، أما أبو عبيدة فقد احتكم إلى لغة العرب فى فهم النص والاستئناس بالشاهد ، ثم انتفع — مع ذلك — بما تمخضت عنه الحركة الثقافية من بحوث علمية مثمرة فقدم كتابه « مجاز القرآن » حافلا باللغة والأدب والبلاغة ...

وبعد : فهذه أضواء على أبى عبيدة وكتابه « مجاز القرآن » وما حواه من فنون البلاغة والبيان .. ؟

صلاح محمود على شحاته